آفاق وسياقات
تشرين الأوّل ٢٠٢٤ / العدد ١ – ص. ١٤٢-١٥٣

من التصوّف المسيحيّ إلى التصوّف الفرنسيسكانيّ (أضواء على الماهيّة والصور)

محمّد مجيد حميد بلال
و
الأب سليم دكّاش اليسوعيّ

محمّد مجيد حميد بلال، طالب دكتوراه في كلية العلوم الدينية في جامعة القدّيس في بيروت. مدرّس في وزارة التربية/ الكلية التربوية/ النجف الأشرف – العراق.

الأب سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، لبنان، حائز دكتوراه في الآداب والفلسفة من جامعة بانتيون – السوربون الأولى كما حاز شهادة دكتوراه ثانية في العلوم التربويّة من جامعة ستراسبورغ – فرنسا.

خلاصة

تتناول المقالة ركائز التصوّف المسيحيّ والفرنسيسكانيّ والرؤى المشتركة بينهما. التصوّف تجربة وجدانيّة تتّسم بها الأديان السماويّة كافّة، وهو تجربة روحيّة تنبع من صميم الحياة الدينيّة للفرد. يسعى التصوّف المسيحيّ لتحقيق الاتّحاد مع الله عبر التأمّل والصلاة بثلاث مراحل، بينما التصوّف الفرنسيسكانيّ المرتبط بالقدّيس فرنسيس يمتاز بالتواضع والفقر الروحيّ. رغم تقاربهما في الروحانيّة والبحث عن الله، يختلف الفرنسيسكانيّ بممارساته كالصلاة والصوم.

كلمات مفتاحيّة

التصوّف المسيحيّ – التصوّف الفرنسيسكانيّ – فرانسيس الأسّيزيّ – أفراييم السوريّ.

Résumé

L'article présente les piliers de la mystique chrétienne et franciscaine, révélant le soufisme comme expérience spirituelle universelle transcendant les barrières religieuses. La mystique chrétienne vise l'union avec Dieu par la méditation et la prière en trois étapes, tandis que la franciscaine, liée à saint François, privilégie l'humilité et la pauvreté spirituelle. Bien que partageant une quête spirituelle commune, elles diffèrent par leurs pratiques : la franciscaine favorise la prière, le jeûne et l'expérience divine dans la nature sans imposer les disciplines strictes de la mystique chrétienne traditionnelle.

Mots-clés

Mysticisme chrétien – mysticisme franciscain – Bible – François d'Assise – Éphrem le Syrien.

تُعَدّ النزعة الروحيّة المسيحيّة واحدةً من أبرز النزعات التي سادت أقطار الأرض في وقت من الأوقات. ويمكن النظر إليها وَوصفها بأنَّها حالة اختباريّة فائقة للطبيعة يعيشها الفرد مع الربّ بشكلٍ مباشرٍ. وتحتلُّ النزعة الروحيّة المسيحيّة إحدى نواحي التصوّف المسيحيّ الجديرة بالثناء على وجهِ العموم، خصوصًا في ما يتعلّق بالاشتياق إلى الله والجوع إليه. كما يدرك المسيحيّ الصوفيّ ضرورة القيام بمقابلات شخصيّة وخاصّة مع الله بوصفها العنصر الأساسي للحياة المسيحيّة. ويظهر هذا الأمر من خلال الجدّية التي يتحلّى بها المسيحي الصوفيّ أمام وصيّة يسوع الآتية من جهة: «وأمّا أنتَ فمَتَى صَلَّيتَ فادخُلْ إِلَى مِخدَعِكَ وأغلِقْ بابَكَ، وصَلِّ إِلَى أبيكَ الّذي في الخَفاءِ»، والإيمان بوعد المسيح: «فأبوكَ الّذي يَرَى في الخَفاءِ يُجازيكَ عَلانيَةً»[1] من جهةٍ أخرى.

وَيُعَدّ التصوّف المسيحيّ والتصوّف الفرنسيسكانيّ تيّارين دينيّين يهتمّان بالروحانيّة والقرب من الله داخل الديانة المسيحيّة؛ فالتصوّف المسيحيّ يقوم على أن يعيش المؤمن تجربة روحيّة عميقة مُتَّحدًا بالله من خلال التأمّل والصلاة. كما يمرُّ الفرد بِثلاث مراحل تُفصَّل لاحقًا. أمّا التصوّف الفرنسيسكانيّ، فهو تيّار مسيحيٌّ آخرُ يَرتبط بشخصيّة القدّيس فرنسيس الذي عُرِفَ بالتواضع والفقر الروحيّ.

فعلى الرغم من التقارب بين التيارين المسيحي والفرنسيسكاني في ما يخصُّ الروحانيّة والبحث عن الله، إلّا أنّ التصوّف الفرنسيسكانيّ قد يختلف عن المسيحي بسبب تأثير القدّيس فرنسيس وتعاليمه على هذا التيّار. وَتتمثّل ممارسات التصوّف الفرنسيسكانيّ في الصلاة والصوم والعمل الخيريّ، إضافةً إلى التركيز على تجربة الله في الطبيعة والفقر الروحيّ. فضلًا عن ذلك، لا يشترط التصوّف الفرنسيسكانيّ اعتماد الضوابط والمعايير التي فرضها التصوّف المسيحيّ على الناسك المتصوّف حتّى يصل إلى مرحلة التجلّي.

وَتجدر الإشارة إلى أنّ المتلقّي قد يعتقد أنّ التصوّف الفرنسيسكانيّ هو تجلٍّ للتصوّف المسيحيّ أو ظاهرة من ظواهره. فعلى الرغم من أنَّ التصوّف الفرنسيسكاني يستبطن التجربة الصوفيّة المسيحيّة بوصفها أصلًا من أصوله، إلّا أنّ التطوير القائم يستند إلى الانتقاء وإعادة التشكيل، وَذلك بحسب العلاقات الجديدة التي تُضفي إلى العمل استقلاليَّةً مُعيَّنة وتخرجه

(١) (متى ٦: ٦).

عن النظام السابق. وَالمقصود، أنَّ التصوف الفرنسيسكانيّ هو تصوّفٌ مستقلٌّ بصرفِ النظر عن الأصول المبنائيّة المتّفقة. فالقيمة الواقعيّة لا تُنسبُ إلى جزيئات النظام، بل إلى العلاقات النظاميّة الجديدة، لأنَّ العلاقات هي التي تُساهم في إعطاء التصوّف طابعًا استقلاليًّا من خلال النظام. وَعليه، لا يجوز أن يُنسب أَصل التصوّف الفرنسيسكاني إلى المسيحيَّة كما تُنسب الحركات البابيّة والبهائيّة إلى الإسلام. وَعلمًا أنَّ تلك الحركات تستند في أَصل مبناها إلى الإسلام، إلّا أنَّها شكّلت موقعيّة خاصّة في نظامها الجديد، فاكتسبت طبيعة دينيّة مستقلّة على الرغم من أنّها اشتركت في أصولها مع الإسلام.

فقد عُرِفت التجربة التصوّفيّة لدى الفرنسيسكان بأنّها تجربة تفاؤل وخير وأمل ممزوجة كلّها بالسعادة والزهد والتنسّك، ولعلّ هذا «ما أخرج لنا من الفرنسيسكانيّة كلّ هذا الفنّ والجمال والمتعة»[٢].

وبناءً على ما سبق، سنتوقَّف في هذه الورقة الموجزة عندَ التصوّف المسيحيّ والتصوّف الفرنسيسكانيّ بهدف مناقشة ماهيّة كلٍّ منهما وَالصور المتعلّقة بهما، إضافةً إلى أبرز التطبيقات الدالّة عليهما. ولا يخفى على القارئ أنّ أهمّية هذا الموضوع تكمن في جدوى مناقشة التصوّف المسيحيّ من حيث ماهيّته وصوره، كما تكمن أيضًا في محوريّة دور طائفة الفرنسيسكان في العمل الصوفيّ الزهديّ.

فضلًا عن ذلك، وتحاول هذه المقالة الإجابة عن مجموعة من الإشكاليّات في صورة تساؤلات، أبرزها ما يأتي: من هم الفرنسيسكان، وما هي أبرز أدوارهم في نشر العلم؟ ما المقصود بمصطلح التصوّف المسيحيّ، وما مدى اتّصاله باللاهوت التصوّفي؟ ما هي أبرز صور الخطاب الصوفيّ الفرنسيسكانيّ؟ وفي سبيل ذلك، اقتضت طبيعة الموضوع أن أعتمد على المنهج الوصفيّ التحليليّ لوصف التصوّف المسيحيّ وكذا التصوّف الفرنسيسكانيّ والعمل على تحليل الصور المتعدّدة فيهما بشكل تفصيليّ. وقد اشتملت هذه المقالة على مقدّمة وثلاثة محاور وقائمة بأهمّ المراجع المعتمد عليها، وذلك على الآتي:

(٢) وهيب، أندرو الفرنسيسكانيّ، **قراءة في التصوّف الفرنسيسكانيّ**، توزيع ونشر: الرهبان الفرنسيسكان- إقليم العائلة المقدّسة، مصر، ط١/ ٢٠١٩م، ص ٣٨.

أوّلًا- التعريف بالفرنسيسكان

يُعرَّف الفرنسيسكان على أنَّهم طائفة من الرهبان تنتسب إلى مؤسّسها فرنسيس الأسّيزيّ (١١٨٢-١٢٢٦م) الذي نشأ في إقليم أسّيسي ASSISI في شمال إيطاليا، وكان يدعو الناس إلى أن يحيوا حياة السيد المسيح بما فيها من بساطة وزهد وتقشّف[٣].

وسرعان ما انتشر النظام الفرنسيكانيّ أو نظام الإخوة الأصاغر، إذ حذا حذو فرنسيس أخوة كثيرون من أغنياء التجّار وعاشوا حياة الزهد والتقشّف، وقضوا أوقاتهم في الصلاة والتعبّد والخدمة، والعناية بالمرضى، خصوصًا البرص، واشتغلوا بأيديهم في الحقول والمزارع لكسب قوتهم بعرق جبينهم، حتّى إنَّهم كانوا يشحذون كُلَّما صَعُبَ عليهم إيجاد عملٍ، ومن ثمّ سمّوا بـ«الرهبان الشحّاذون»[٤].

وقد أدّى الفرنسيسكان دورًا كبيرًا في نشر العلم؛ إذ كانوا ينشئون المدارس حيثما ذهبوا، كما اهتمّوا كثيرًا بالتعليم. والمعروف أنّهم واجهوا الكثير من الانتقادات، أهمّها أنّهم بذلوا جهودهم كلّها بهدف إنشاء المدارس ونشر العلم بدلًا من أن يخرِّجوا صفوفًا من علماء الكتاب المقدّس والقادة الدينيّين. إلّا أنّ النقّاد آنذاك، فاتهم أمرٌ مهمٌّ ألا وهوَ أنّ نشر العلم بين الناس خدمة يحتلّ الدين جزءًا كبيرًا منها.

وَعندما نجحت إحدى الحملات الصليبيّة التي آلت إلى إقامة مملكة لاتينيّة وبطريركيّة لاتينيّة[٥]، تمكَّن الفرنسيسكان من نشر تعاليم الكنيسة الكاثوليكيّة في بلاد الشرق. كما أنّهم أدّوا دورًا رئيسًا عندما اكتسح التتار أقطار أوروبا، فحصلوا من المغول على تصريح يسمح لهم بتقديم خدماتهم بين الناس. وقد أَدَّت خدمات الفرنسيسكان إلى إنعاش الحياة الدينيّة بين الناس، فازدادت الطلبات بإرسال بعثات إليهم تنشر رسالة الإنجيل وتقدّم خدمات المحبة[٦].

(٣) المهتدي، عبلة، **القدس تاريخ وحضارة (٣٠٠٠ق مـ ١٩١٧هـ)**، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ٢٠٠٠م، ص ٢٨٨.

(٤) **قاموس أكسفورد المحيط: إنكليزي-عربي ٢٠٠٣م**، طبعة: Academia، ص ٦٦١.

(٥) **من تراث القبط**، المجلّد الرابع، دار القدّيس يوحنا الحبيب ٢٠٠٤م، ص ١٤٥-١٤٦.

(٦) وقد عاصر ظهور الفرنسيسكان ظهور النظام الدومنيكانيّ، وقد تأثّر كلّ من النظامين بالآخر، وأظهر كلّ منهما غيرة عظيمة في تقديم المواعظ للناس. وممّا هو جدير بالذكر أنّ الفرنسيسكان والدومينيكان أدّوا دورًا كبيرًا في مساندة البابويّة ومعاونتها، وفي تحقيق الصورة التي طالما راودت خيال البابا انوسنت الثالث.

ثانيًا- نظرات في التصوّف المسيحي

يشير مصطلح «التصوّف المسيحيّ» إلى تطوّر مجموعة الممارسات الصوفيّة والنظريّات الصوفيّة المتَّبعة ضمن الديانة المسيحيّة. وَكثيرًا ما يتّصل المصطلح المذكور باللاهوت الصوفي، وخصوصًا بالتقاليد الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة الشرقيّة. وعليه، فإنّ السمات والوسائل التي يتمّ الاستناد إليها بهدف دراسة التصوّف المسيحيّ، تُمارَس عن طريق مجموعة متنوّعة من الرؤى ومنتشي اتّحاد الروح الصوفيّة مع الله، إضافةً إلى التأمّل في الكتاب المقدس (أي القراءة الإلهيّة). ويتأتّى هذا الاتّحاد عن سلسلة من الممارسات، فلا يصل الناسك إلى مرحلة الاتّحاد إلّا بعد اجتيازه مراحل ثلاث، أوّلها «التخلّي» أي إماتة الجسد حيث يتخلّى الناسك عن الشهوات تحديدًا؛ أمّا المرحلة الثانية فتُعرف بـ«التحلّي» وَتتمُّ عن طريق اكتساب الفضائل؛ وصولًا إلى المرحلة الثالثة التي تعرف بـ«الاتّحاد» أو «التجلّي»[٧].

يعود التصوّف المسيحيّ إلى القرون الميلاديّة الخمسة الأولى، عندما ظهرت مجموعة من الروحانيّين المسيحيّين الذين سبق وذكرهم التاريخ المسيحيّ على أنّهم معلّمو اللاهوت الروحيّ ونذكر منهم: «أوريجانوس، وأنطونيوس، وباسيليوس الكبير، وغريغوريوس أسقف نيصص، وغريغوريوس الثيؤلوغوس، وأمبروز وأوغسطينوس». ويُعرف هؤلاء المعلِّمون السبعة بأنهم أصحاب نصوص العبادة اللاهوتية بغالبيتها والشروحات الروحيّة، وهم أوّل من بدأ بممارسة التصوّف المسيحيّ من خلال القراءة الروحيّة وتأويل النصّ المقدّس بنوعيه الرمزيّ والمجازيّ[٨].

وقد شهدت المسيحيّة بروز طوائف من بين صفوف الزهّاد كما سبق وحصل في الديانة اليهوديّة، فرأى العديد من أتباعها أنّ على الناس «قبل بلوغهم مستوى سكون الذهن، أن يجرّبوا تركيز عقلهم لتحريره من الاهتمامات وسحبه من الهموم الدنيويّة. بهذه الطريقة، يتمّ تقديم الإعراض عن أشياء هذا العالم كطريقة للتطهّر النسكيّ وعمليّة للإرتقاء نحو سكون الذهن. لهذا السبب يضع القدّيس يوحنّا السينائيّ، معلّم الهدوئيّة، الزهد على أنّه عارضة السلم الأولى – في كتاب السلم الذي هو دليله إلى الهدوئيّة –. فهو يقول إنَّه ما من أحد

(٧) "Mysticis", *Stanford Encyclopedia of Philosophy*, First published Thu Nov 11, 2004; substantive revision Tue Jul 31, 2018.

(٨) Deville R., "The French School of Spirituality", *Jesus Living in Mary : Handbook of the Spirituality of St. Louis de Montfort*, p. 437-457.

يدخل الخدر السماويّ بإكليل إن لم يمارس الزهد المثلّث: للأشياء وللآخرين، قطع المشيئة الذاتيّة، ورفض المجد الباطل»[٩].

ومن بواكير النسّاك الذين وردتنا أخبارهم من سوريا والعراق هو «يعقوب النصيبينيّ» الذي يذكره ثيودوريتس القورشيّ في كتابه عن رهبان سوريا. وقد عاش بالقرب من مدينته نصيبين التي كانت تقع آنذاك، على الحدود ما بين الإمبراطوريّة الرومانيّة والإمبراطوريّة الفارسيّة[١٠]. ومنذ منتصف القرن الثالث، شرع النسّاك المسيحيّون باختبار حياة تقشّف وزهد في الصحراء المصريّة والسوريّة. وفي سنة ٣٠٥م[١١]، جذب القدّيس أنطونيوس (٢٥١-٣٥٦م) الكثير من الناسكين وحشدهم في تلك المنطقة.

ويبدو أن النسك المسيحيّ السريانيّ كان ظاهرًا وَواضحًا أكثر من غيره، «ومن الثابت أنّ عدد الرهبان والراهبات السريان بلغ ستمئة ألف في ذلك العصر الذهبيّ - القرنين الرابع والخامس -، وبرز في الكنيسة السريانيّة نسّاك يُعَدّون من أقطاب الزهد والنسك، لا في الكنيسة السريانيّة فحسب، بل في المسيحيّة جمعاء»[١٢].

ويُعَدّ أفراييم السوريّ أحد أهم مثال على هؤلاء الزهّاد. وإذا كان التنفّس الطريق العاديّ للناس، فالبُكاءُ كان بمثابة الطريق الطبيعيّ وَالعاديّ لأفراييم. وَما كانَ يمضي نهارٌ، أو ليلٌ، أو ساعةٌ، أو لحظةٌ مهما كانت قصيرة، إلّا وَعَيْنا القدّيس أفراييم مفتوحتان ومملوءتان بالبكاء. لقد كان ينوح على خطاياه ويولول عليها، كما ينوح على خطايا البشر ويولول عليها. وَامتلأت كتاباته بالدعوة إلى البكاء والنواح كرمز إلى التوبة. كما أعلن أن مسؤوليّته الكاملة والتامّة في

(٩) John the Sinaïte, *Ladder* 2,14, PG 88, 657A.

(١٠) بدأ يعقوب النصيبينيّ حياته النسكيّة في بداية النصف الثاني من القرن الثالث الميلاديّ وهو فتى يافع، وسيم أسقفًا على نصيبين وهو في شبابه، وكان ذلك نحو سنة ٣٠٠ ميلاديّة. وعاش حياة نسكيّة مستقلّة في أعلى الجبل الذي يقع في البادية المجاورة لنصيبين، وكان يقضي الشتاء في مغارة والربيع والصيف والخريف في العراء، حيث لا سقف يعلو رأسه سوى السماء. كان يرفض تناول أي طعام مطهوّ على النار، ولذلك كان يقتات بالأعشاب البريّة وبعض الفاكهة التي تجود بها الأرض، ولمرّة واحدة في النهار فقط، وأحيانًا لمرّة واحدة في الأسبوع عندما كان يصوم. أمّا لباسه فكان ثوبًا واحدًا لا غير، مصنوعًا من شعر الماعز الخشن. كان ينام قليلًا ويقضي معظم الوقت في التأمّل والصلاة ومناجاة الخالق الذي صنع العجائب الكثيرة على يده. وتوفّي سنة ٣٣٧/ ٣٣٨م. ودفن في مدينته نصيبين؛ أُنظر: [**المسيحيّة عبر تاريخها في المشرق**، مجلس كنائس الشرق الأوسط، ٢٠٠١م، تحرير: حبيب بدر - سعاد سليم - جوزيف ابو نهرا، ص ٣٨٨].

(١١) توماس، عماد، **تاريخ الرهبنة السريانيّة**، مركز المسبار للدراسات والبحوث، ص ٢٩ وما بعدها.

(١٢) ساكا، إسحق، **كنيستي السريانيّة**، أنطاكية بدون ناشر، ٢٠٠٧م، ص ٦٤.

هذه الحياة هي التوسّل إلى الله بكلّ جوارحه خلال نهنهات البكاء، وجريان دموعه كالماء حتّى يحصل على الخلاص. وأكَّدَ أنّ قلبه سينفطر بالتأوّهات، إلى أن يحصل على العفو والمغفرة(١٣).

كما تقرّر الباحثة مارجريت سيمث أنّ الزاهد كان يُدعى «البكّاء» في الكنيسة السريانيّة، وأن **إسحق النينوى كتب عن قيمة الدموع وأهميّتها للزاهد**، إذ يقول: «حين يبدأ السالك في هجر لذّات هذا العالم الجسديّة، وينتقل إلى هذه المجالي التي تكمن خارج هذه الطبيعة المنظورة، إنّه سيصل حينئذ إلى نعمة الدموع(١٤)، ستبدأ هذه الدموع وتقوده إلى حبّ الله»(١٥).

ثالثًا- صور الخطاب الصوفيّ الفرنسيسكانيّ

إنّ الفرنسيسكان شأنهم شأن الرهبان المسيحيّين جميعهم. هم يسعونَ وراء الكمال المسيحيّ عن طريق ممارسة الفضائل الإنجيليّة، خصوصًا الزهد في الخيرات الأرضيّة والعزوف عن الزواج ونكران الذات بالخضوع الرهبانيّ إلى الرؤساء الشرعيّين، إضافةً إلى أعمال الإماتة والعبادة(١٦). وكانت بداية الفرنسيسكان، أكثر قربًا من الروح في القرن الحادي عشر. وَالمعروف عن رهبانيّة الفرنسيسكان أنَّها كانت روحيّة، وانعزاليّة أحيانًا. كما كانت تدعو إلى التقشّف والزهد، وتميل إلى تأكيد التطهّر والنسك أحيانًا أخرى(١٧).

ومن أبرز الصور الدالة على الخطاب الصوفيّ الفرنسيسكانيّ موقف الرهبنة من التفلسف؛ فقد اتّخذ أغلب الرهبان الفرنسيسكان موقفًا معارضًا تجاه الفلسفات الوافدة، رافضين الأخذ

(١٣) النشار، علي سامي ، **نشأة الفكر الفلسفيّ في الإسلام**، دار المعارف – القاهرة، ط١٠/ ٢٠١٨م (٣/ ١٤٨).

(١٤) وفي هذا الإطار، تجدر الإشارة إلى متصوّفي ونسّاك القرن الثامن ميلادي وقبله، في الوسط الرهباني، وخصوصًا في شمالي العراق ومنهم: هورمزد ريان ، أنيفرام، مار يوزاداق، مار متى، يوحنا الولياتي، مار توما، مار بهنام، دادشوع، دتيبوطا شمعون ، هزاي يوسف، وغيرهم كثيرون من أصحاب الاختبار الروحاني الصوفي.

Cf. Daccache Salim, « Figures remarquables dans la mystique syriaque du VIIe – VIIIe siècle », *POC* 60 (2010), 245-256.

(١٥) النشار، **نشأة الفكر**، مرجع سابق (٣/ ١٤٨).

(١٦) وصفي، محمد رضا ، **التفاعل بين الإسلام والمسيحيّة في إيران: العهد الصفويّ**، مركز الحضارة لتنمية الفكر، بيروت ٢٠١٥م، ص ٣٢٤.

(١٧) رفيق، حبيب، **تاريخ الكنيسة المصريّة: كتاب لكل المصريّين**، الدار العربيّة للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٤م، ص ٧٠، ص ٧٧.

بأيّ منها، كما رأوا أنّ فلسفة أفلاطون التي بنى عليها القدّيس أوغسطين الكاثوليكيّة فيها كل ما يلزم للدين من الفلسفة[١٨].

يضاف إلى ما سبق وذُكر، نزعة الفرنسيسكان نحو تأسيس التصوّف الكونيّ؛ فالله ليس بعيدًا عنّا أو متعاليًا. الله متواضعٌ، وهو إلى جانبنا، وبقربنا أكثر من أنفسنا. الله لم يأتِ في المجد، بل في التواضع حيث نعيش جميعًا بالفعل[١٩]. فقد لحظ فرنسيس أحد مصادیق الوجود بوصفه تجلّيًا من تجلّيات الخالق وعشقه للطبيعة، ممّا يدلّ على قرب الخالق من البشر أو على التنزّل الإلهيّ (نشيد الخلائق). فالخالق، وفقًا لرؤيته، يتنزّل ليسبح في أرواح المخلوقات. يعيد كلّ ذلك، بلا شكّ، توجيه الحياة الروحيّة إلى ما سبقَ وَقرّر الفرنسيسكان عليه في البداية: فضيلة الفقر في التصوّف الفرنسيسكانيّ، بعضهم يرجع بهذه الفضيلة إلى التصوّف الفرنسيسكانيّ في القرن الثالث عشر ويقول بامتدادها فيمن جاء بعده[٢٠].

وقد تميّز التصوّف الفرنسيسكاني، خصوصًا في مصر كما تقول الباحثة القديرة آنا ماري شيمل، بسياحة الرهبان في البريّة، وقد سجّل هذا الأمر، بلا شكّ، ومضات روحيّة رفيعة وجدت طريقها إلى حقول معرفيّة أخرى[٢١].

ويبدو للباحث أنّ ثمّة امتدادات لهذه النزعة الصوفيّة الفرنسيسكانيّة في حقول وثقافات أخرى، وأنجح السبل في بحث سريان هذا التصوّف في الآخرين إنّما يكون من خلال البحث في أعلام التصوّفات الأخرى وسيرهم وأقوالهم[٢٢]. وقد ذهب نيكلسون في هذا الصدد

(١٨) فراج، عبده، **معالم الفكر الفلسفيّ في العصور الوسطى: فلسفة إسلاميّة ومسيحيّة**، مكتبة الأنجلو المصريّة ١٩٦٩م، ص ٢٠٥.

(١٩) وهيب، أندرو الفرنسيسكانيّ، **قراءة في التصوّف الفرنسيسكانيّ**، توزيع ونشر: الرهبان الفرنسيسكان- إقليم العائلة المقدّسة، مصر، ط١/ ٢٠١٩م، ص ٣٥.

(٢٠) زكريّا، يحيي، **مفهوم العهد في التصوّف اليهودي**، ص ٧٠.

(٢١) شيمل، آنا ماري، **عيسى ومريم في التصوّف الإسلاميّ**، ترجمة: لميس فايد، الكتب خان ٢٠١٧م، ص ١١.

(٢٢) يقول العقّاد في هذا الصدد: فإذا أراد المؤرّخ أن يبحث عن سريان التصوّف من أتباع ديانة إلى أتباع ديانة أخرى، فإنّما سبيله في هذا البحث أن يتعرّف الصوفيّة المنتقلة من نحلة إلى نحلة في سيرة علم واحد من أعلامها البارزين، أو أقوال مفكّر واحد من أئمّة الفكر بين أبنائها المجتهدين، وربّما كان المفكّر الديني الذي ينهج في النسك منهجًا لم يسبقه إليه أحد من أبناء ملّته أعظم استقلالًا بالرأي ممّن يبتدع ذلك المنهج لنفسه من غير سابقة؛ لأنّ التغلّب على العصبيّة المذهبيّة والتحيّز القومي أحوجُ إلى الاستقلال من ابتداع رأي لا مقاومة فيه ولا حاجة به إلى التغلّب على معارضيه أو منكريه؛ اُنظر: [العقاد، **ما يقال عن الإسلام**، مؤسّسة هنداوي ٢٠١٤م، ص ٩٣].

إلى الحديث عن ظهور طائفة تعرف بـ«البكّائين» بين الزهّاد. ويرجّح أنّ هذا الاسم قد أخذه المسلمون عن رهبان المسيحيّة[٢٣].

يُضاف إلى ما سبق إنسانيّة ذلك التصوّف، وفي رأي بعض الباحثين أنّ هذه الروحانيّة الفرنسيسكانيّة هي: «روحانيّة الحياة الإنسانيّة دون تمييز بين طبقة وأخرى، بين مكرّس أو غير مكرّس، بين مسيحيّ أو غير مسيحيّ. الروحانيّة الفرنسيسكانيّة هي نمط حياتيّ يتداخل مع أعمالنا اليوميّة بين المنزل والعمل والكنيسة، فهي نمط إنسانيّ بامتياز يجعل من الطبيعة كلّها في جميع المخلوقات شركاء تسبيح دائم لله العليّ»[٢٤].

ومن الممكن أن يؤكّد هذا الأمر صحّة الرأي الذي يفيد بأنّ المسيحيّ في المستقبل أمام خيارين: إمّا أن يكونَ متصوّفًا وإمّا أن لا يكون له وجود على الإطلاق. من هنا، نفهم أنّه لا بدّ للمسيحيّة من أن تدرك أنّها تصوّفيّة، وإلّا تحوّلت إلى مجرّد «فاترينة» عرض وانعكاسات لنظام أكبر[٢٥]. إضافةً إلى ذلك، يرى بعض الباحثين أنّ رهبنة الفرنسيسكان، على الرغمِ من أنّها أُسّست على مبدأ الفقر الرسولي، إلّا أنّها تغيّرت بعض الشيء، خصوصًا عندما هجر معظم الرهبان أسلوب التجوّل في الأرض، وعاشوا في أديرة كبيرة مجهّزة بالمكتبات والمطابخ والمزارع. يرى هؤلاء في هذه الممارسة خروجًا عن المبادئ التي تأسّست عليها الرهبنة[٢٦].

في نظر الباحث لا يصحّ التسليم بهذا الرأي الأخير. فانتقال الفرنسيسكان من حالة الفقر الرسوليّ إلى العيش في الأديرة المجهّزة هو من باب التطوّر الطبيعيّ الذي طرأ على الحياة

(٢٣) نيكلسون، **في التصوّف الإسلاميّ وتاريخه**، ترجمة: أبو العلا عفيفي، الهيئة العامّة لقصور الثقافة ٢٠٢٠م، ص ٤٧. النشار، **نشأة الفكر**، مرجع سابق (٣/ ١٤٣). إنّ المسلمين أنفسهم كانوا مدركين كلّ الإدراك أنّ بكاءهم الذي أثارته تقواهم له مثيل في المجال اليهوديّ – المسيحيّ، وتدلّ عليه بجلاء شواهد، كدموع آدم ونوح (مشتقّ من ناح) ويعقوب وداود وسليمان ويوحنا المعمدان ويسوع ورهبان عديدين؛ أُنظر: **(مادّة بكاء، موجز دائرة المعارف الإسلاميّة**، المؤلّف: هوتسما م. أرنولد ت. – ت. و. – باسيت ر. – هارتمان ر.– ترجمة: خورشيد إبراهيم زكي – الشنتناوي أحمد وآخرون، مركز الشارقة للإبداع الفكريّ ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م (٦/ ١٨٢٢).

(٢٤) وهيب، أندرو الفرنسيسكانيّ، **قراءة في التصوّف الفرنسيسكانيّ**، توزيع ونشر: الرهبان الفرنسيسكان – إقليم العائلة المقدّسة، مصر، ط١/ ٢٠١٩م، ص ٦.

(٢٥) وهيب، أندرو الفرنسيسكانيّ، **قراءة في التصوّف الفرنسيسكانيّ**، توزيع ونشر: الرهبان الفرنسيسكان – إقليم العائلة المقدّسة، مصر، ط١/ ٢٠١٩م، ص ٣٨.

(٢٦) مكفادِن، جونجو، **الحياة بسيطة**، ترجمة: عبد الفتّاح عبد الله، مؤسّسة هنداوي ٢٠١٧م، ص ٧٤.

المعيشة، ولا يعني ذلك أنّهم انسلخوا عن تنسّكهم وزهدهم مطلقًا. فمن الممكن اعتبار أحد الأثرياء الكبار زاهدًا وَثريًّا في الوقت عينِهِ.

ختامًا، يعدّ التصوّف المسيحيّ من بين النزعات الروحيّة التي برزت في الوجود وتشكّلت في صور وقوالب تنسّكيّة عديدة ظهرت معالمها في حياة الرهبان وبعض عامّة الناس وتصرّفاتهم والفرنسيسكان، شأنهم شأن جميع الرهبان المسيحيّين، يبغون الكمال المسيحيّ من خلال ممارسة الفضائل الإنجيليّة، وخصوصًا الزهد في الخيرات الأرضيّة، والعزوف عن الزواج، ونكران الذات عن طريق الخضوع الرهبانيّ.

مصادر ومراجع

- ساكا، إسحق، **كنيستي السريانيّة**، أنطاكية بدون ناشر ٢٠٠٧م.
- شيمل، آنا ماري، **عيسى ومريم في التصوّف الإسلاميّ**، ترجمة: لميس فايد، الكتب خان ٢٠١٧م.
- وهيب، أندرو الفرنسيسكانيّ، **قراءة في التصوّف الفرنسيسكانيّ**، توزيع ونشر: الرهبان الفرنسيسكان – إقليم العائلة المقدّسة، مصر، ط١/ ٢٠١٩م.
- مكفادِن، جونجو، **الحياة بسيطة**، ترجمة: عبد الفتّاح عبد الله، مؤسّسة هنداوي ٢٠١٧م.
- رفيق، حبيب، **تاريخ الكنيسة المصرية: كتاب لكلّ المصريّين**، الدار العربيّة للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٩٤م.
- فراج، عبده، **معالم الفكر الفلسفيّ في العصور الوسطى: فلسفة إسلاميّة ومسيحيّة**، مكتبة الأنجلو المصريّة ١٩٦٩م.
- المهتدي، عبلة، **القدس تاريخ وحضارة** (٣٠٠٠ق م ـ ١٩١٧هـ)، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ٢٠٠٠م.
- العقاد، **ما يقال عن الإسلام**، مؤسّسة هنداوي ٢٠١٤م.
- النشّار، علي سامي، **نشأة الفكر الفلسفيّ في الإسلام**، دار المعارف – القاهرة، ط١٠/ ٢٠١٨م.
- توماس، عماد، **تاريخ الرهبنة السريانيّة**، مركز المسبار للدراسات والبحوث.
- **قاموس أكسفورد المحيط: إنكليزي–عربي ٢٠٠٣م**، طبعة: Academia.
- وصفي، محمّد رضا، **التفاعل بين الإسلام والمسيحيّة في إيران: العهد الصفويّ**، مركز الحضارة لتنمية الفكر، بيروت ٢٠١٥م.
- **المسيحيّة عبر تاريخها في المشرق**، مجلس كنائس الشرق الأوسط، ٢٠٠١م، تحرير: بدر، حبيب – سليم، سعاد – ابو نهرا، جوزيف.

- **من تراث القبط**، المجلّد الرابع، دار القدّيس يوحنا الحبيب ٢٠٠٤م.
- **موجز دائرة المعارف الإسلاميّة**، المؤلف: هوتسما م. ت. - أرنولد ت. و. - باسيت ر. - هارتمان ر.- ترجمة: خورشيد إبراهيم زكي - الشنتناويّ أحمد وآخرون، مركز الشارقة للإبداع الفكريّ ١٤١٨ه - ١٩٩٨م.
- نيكلسون، في التصوّف الإسلاميّ وتاريخه، ترجمة: أبو العلا، عفيفي، الهيئة العامّة لقصور الثقافة ٢٠٢٠م.
- Deville, R. "The French School of Spirituality", *Jesus Living in Mary: Handbook of the Spirituality of St. Louis de Montfort.*
- John the Sinaïte, *Ladder* 2,14, PG 88, 657A.
- «Mysticis», *Stanford Encyclopedia of Philosophy,* First published Thu Nov 11, 2004; substantive revision Tue Jul 31, 2018.